"المسؤولية الأخلاقية للأوربيين وبرجوازييهم اليهود تجاه الشعب الفلسطيني"

أ. د. طالب القريشي
كلية اللغات

إن مراجعة بسيطة لمجريات التاريخ قد تلقي بظلالها على الضرر الذي لحق الشعب الفلسطيني دون أن يكون له أي نصيب بما يسمى بالمشكلة اليهودية، وتتحمل الدول الأوربية، لا سيما بريطانيا، وبرجوازييها من اليهود المسؤولية الأخلاقية تجاه هذا الشعب واحتلال أرضه وشرذمته في مخيمات شتى على مدى أكثر من ستة عقود.

لقد انتهى الوجود اليهودي في فلسطين، كما هو معروف، عام 70 ميلادية عندما احتل القائد الروماني تيتوس القدس ودمرها ودمر هيكلها وشتت يهودها. كما أعلن الامبراطور الروماني كونستانتين الأول (الكبير) في عام 325 المسيحية دينا رسميا لجميع اقاليم الامبراطورية الرومانية ومنع اليهود من الدخول الى القدس.

(Immigration) ولم يكن، بطبيعة الحال، أي دور للعرب في تلك الاحداث ولم يشكلوا في تلك الأثناء قوة تتصارع في منطقة الشرق الاوسط، على غرار الفرس والرومان والبابليين والاشوريين والمصريين. وكان جل كراهية المسيحيين لليهود دور الاخيرين في التحريض على مقتل السيد المسيح.

واستمر العداء المسيحي لليهودية زمنا طويلا امتد الى حقبة التنوير الاوربية في القرن الثامن عشر، وانبرى الادباء الاوربيون المسيحيون في تسليط الضوء في كتاباتهم على الجوانب السلبية لليهودية وممارسات معتقديها التي تقترب من السخرية. وعد فرانكو فولتير، الفيلسوف الفرنسي والمؤرخ والمسرحي والكاتب، اليهود من أصعب شعوب العالم في التنور والنهضة، وأوضح بسخرية انه يستطيع الجلوس على طاولة واحدة مشاركا طعامه مع تركي، أو صيني أو هندي... وحتى مع يهودي شريطة أن يحرر هذا اليهودي نفسه من خرافاته المقيتة وتحاملاته.

(Barzilay) وعموما عد هؤلاء العالمان اليهود واليهودية خلاصة الخرافة والبربرية والأفكار البالية. ناهيكم عن الاديب الانكليزي شكسبير في نتاجه "تاجر البندقية" الذي عرض صورة سلبية لليهود وتقاليدهم.

ومع ذلك، أكد فلاسفة حركة التنوير الاوربية التي بنيت على الفلسفة العقلانية التي تنظر الى العقل باعتباره الاساس في الحياة والسلوك الانسانيين، على ضرورة مراجعة الموروث القديم من العادات والتقاليد ونقدها. وعلى الرغم من عدم امتلاك هؤلاء الفلاسفة رؤية موحدة تجاه اليهود، أمثال ديدروت وفولتير، اللذان رأيا في اليهود واليهودية ومؤسساتها نوعا من الديانة التقليدية التي تتسم بالبربرية وتغلب عليها الاساطير، لاسيما اليهودية الربانية والتلمود اللتان أسهما في عزل اليهود عن

المسيحيين والإضرار بهم، في حين رأى فلاسفة آخرون ضرورة إجراء اصلاح في اليهودية يؤدي الى تقربهم من محيطهم، ومن بين هؤلاء مونتسكيو وجريجوير.(Weinryb)

ومن هنا، يبدو أن المجموعتين قد أكدتا على ضرورة إجراء التغييرات في اليهودية حيث رأتا الديانة اليهودية مثقلة بالطقوس ويعيش اليهود في حالة من التعصب، وعدّتا اليهودية الربانية شريرة واستقبحتا بعض التقاليد اليهودية، ومنها النظام الغذائي وقوانين الزواج التي عدت غير اجتماعية، واصبح من الصعب على الاصدقاء تناول الطعام مع اليهود او التزاوج معهم. كما ان ادعاء اليهود أنهم "شعب الله المختار" تتضمن نظرة عنصرية.

ومع ذلك، عّدت تلك الحقبة حقبة تسامح؛ فقد دعت حركة التنوير الى إزالة جميع مظاهر اللامساواة بين مختلف الشعوب والطوائف، ونظرت الى الانسان ومكانته بقدر درجة تنوره. وقد رحب الكثير من اليهود بهذا المبادئ الانسانية التي كان من شأنها تقريبهم الى مجتمعاتهم وأقرانهم من المسيحيين. ونتيجة لهذا الجو التسامحي، برز ظهور علاقات جديدة بين اليهود وبين المسيحيين منذ الربع الثالث من القرن السابع عشر، وخاصة في المانيا؛ فقد بنى الكثير من اليهود علاقات اجتماعية ودية مع المسيحيين وقلدوا عاداتهم، وحلقوا او قصروا لحاهم، وتعلم اطفالهم الالمانية أو والفرنسية، وقرأوا الكتب والمقالات الدنيوية. وحتى أن البعض منهم انغمس في ممارسات جنسية معهم واكلوا الطعام غير المحلل دينيا، وتجاهلوا الكثير من الطقوس الدينية. وقد عبدت حميع هذه التقاربات الى ظهور حركة تنوير موازية بين اليهود في المانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عرفت بحركة "الهسكلاه" (التنوير اليهودية). (Barzilay.l.E.)

وعموما، أبدى يهود المانيا استعدادهم تطابقهم مع اقرانهم. ويبين الادب المكتوب في تلك الحقبة اعجابهم بالمثل الانسانية وبمبدأ الاخوة لحركة التنوير الأوربية ورغبتهم بعودتهم الى العالم الحديث، لا سيما المجتمع البرليني، ودعوا اليهود الى الاستجابة بفاعلية لهذه التحديات الليبرالية. بكلمات أخرى، من أجل الحصول على المساواة الاجتماعية، على اليهود تكييف انفسهم مع العالم الحديث. وعليه دعوا الى تغيير مناهج التعليم في المدارس اليهودية في المانيا، وفيما بعد في شرق اوربا، حيث تم تجاهل الدراسات الدنيوية.

ومن أجل مزيد من التقارب، دعا هؤلاء المتنورن اقرانهم من اليهود الى ترك عادة اقراض المال، وبدلا منها حثوهم على الاعمال المنتجة، كالزراعة والتجارة والمساهمة بشكل فاعل في اقتصاد دولهم. ونتيجة لجهودهم هذه، نجحت حركة التنوير، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في إحداث تغييرات كثيرة في الحياة اليهودية في غرب اوربا وبعدها في شرقها، وجذبت اليها الطبقة المثقفة، وتميز الكثير منهم بمساهمته للثقافة الاوربية.

وقد تعمقت هذه المواقف الليبرالية بعد اندلاع الثورة الفرنسية في 1789، وتحسن وضع اليهود ليس فقط في فرنسا وانما في جميع الاقاليم التي احتلتها فرنسا، ومنحت امتيازات لهم، لا سيما بعد اعلان حقوق الانسان، حيث منحوا المواطنة الكاملة في فرنسا، وفي بروسيا، وفي هولندا. (Roth) ونتيجة لهذه التغييرات التي شهدتها اوربا الغربية، برز من بين المتنورين اليهود، ومن أجل الاستجابة لهذه الامتيازات، ممن دعى الى اهمال اللغة العبرية من التعليم والصلاة وعدوها معوقا بوجه التقارب المسيحي اليهودي، كما عبر عنها المتنور اليهودي دافيد فرايندلر. (Shohet)

وعلى أية حال، فان ما شهدته اوربا الغربية من مبادئ العقلانية ساهمت في اصلاح اليهودية وتعاليمها لم تشهده اوربا الشرقية الا بعد قرن تقريبا، وكان لفشل نابليون في السيطرة على روسيا سببا في هذا التأخر. وعلى عكس يهود اوربا، بقي يهود روسيا وشرق اوربا بشكل عام تحت سيطرة ربانيهم، الامر الذي أثار غضب السلطات الروسية التي بدت عاجزة عن اشراكهم واشتراكهم في مفاصل الدولة ومؤسساتها، ناهيكم عن اتهام بعض اليهود الاشتراك في محاولة اغتيال الكسندر الثاني عام 1881، مما أدى الى خلق الكثير من الاضطرابات واصدار السلطات الروسية الكثير من القرارات التي بدت لبعض اليهود على أنها مقيدة. (Seltzer)

وفي أعقاب هذه الاضطرابات التي شكلت النواة للهجرة اليهودية الاولى الى فلسطين، الا ان الغالبية اتحهت الى اوربا الغربية وشكلت عبئا على اقتصادها، مما حدى بالبرجوازية اليهودية الغربية الى محاولة التخلص منها وايجاد السبل لتوطينهم في مركز واحد تبلورت في عدة أماكن، وكان من بينها فلسطين الذي استحوذ أهتمام بريطانيا لمشروعها الاستعماري في الشرق الاوسط؛ (Verta) وقد استغلت الدولة الاستعمارية بريطانيا هذه المشكلة وأسرعت باستغلالها لغرض خدمة مصالحها في الوطن العربي؛ فبدأت بدعم ما يسمى بالحركة القومية اليهودية التي دعت إلى جمع اليهود في فلسطين كحل للمشكلة اليهودية، لاسيما في روسيا وبولندا وتبلور ذلك في وعد بلفور عام 1917.

وقبل الولوج في موقف بريطانيا، لابد من التأكيد أن من المسلمات التاريخية هي أن اليهود لم يمتلكوا القدرة على تحقيق ادعائهم بالعودة إلى ما يسمى بأرضهم الموعودة دون عون خارجي، كما هو الحال مع كورش، وفي العصر الحديث الدولة الاستعمارية الكبرى بريطانيا لأجل مصالحها الاستعمارية في تامين طريقها إلى الهند، وليس لأغراض إنسانية كما يدعون. فالأوربيون، والعالم المسيحي عموما يكنون كراهية لليهود، كما أسلفنا، تجسدت في أدبهم، لاسيما لدى شكسبير وفولتير وهيردر وغيرهم (Trachtenberg; Modder). وقد سبقت بريطانيا عبر التاريخ محاولات نابليون ودعوته يهود آسيا وأفريقيا لمساندته في حملته على سوريا في عام 1799 لكي يبني من جديد، حسب ادعائه، مملكة أورشليم، إلا أن الهدف الأساس من دعوته هذه كان السيطرة على الشرق الأدنى، وبالتالي فتح الطرق التجارية ثانية مع فارس والهند وجذب الرساميل اليهودية. وبهذه الطريقة يقلل بشكل كبير من أهمية

الطريق التجاري حول أفريقيا، وتحويل أنظار التجار العرب والفرس إلى الموانئ السورية. ويمكن تحقيق ذلك من خلال مستعمرات يهودية أو غيرها، إلا أن الامتيازات والظروف الاقتصادية الجيدة التي كان اليهود يتمتعون بها حالت دون استجابتهم لهذه الدعوة التي اصطبغت بصبغة دينية. (Modder)

وشهد القرن التاسع عشر اهتماما واسعا بين الدول العظمى آنذاك- بريطانيا وفرنسا وروسيا بالشرق العربي عامة وفلسطين خاصة وإقامة قنصليات لها في القدس على الرغم من عدم تمتعها بأهمية تجارية آنذاك، وخاصة بريطانيا بعد محاولة نابليون السيطرة على فلسطين وقطع الطريق على بريطانيا إلى درة مستعمراتها- الهند، وتأثير فرنسا على المسيحيين الكاثوليك حيث ينظر الأخيرون إليها باعتبارها الحامية للأديرة اللاتينية في القدس؛ وروسيا على الأرثوذكس ومحاولة نزع الاعتراف من الإمبراطورية العثمانية لتكون حامية عليهم، وبذلك تستطيع ضرب المصالح البريطانية من هناك ومن شمال فارس بعد احتلال منابع نهر الفرات حتى الخليج العربي بعد محاولات الإنكليز استخدام نهر الفرات لتقصير طريقهم إلى الهند، والسيطرة أيضا على المناطق القريبة من الهند. ومنذ ذلك الحين، بدأت بريطانيا التفكير جديا بتامين مصالحها بعد إن أحست بتزايد التأثير الروسي والفرنسي في سوريا عموما والقدس خاصة، حيث أخذت كل من فرنسا وروسيا التقرب من محمد علي حاكم مصر من اجل ضرب المصالح البريطانية. ولذلك أقامت بريطانيا في كل مكان يتواجد فيه التأثير الروسي والفرنسي قنصلية لها، ومنها القدس في عام 1838 لأغراض سياسية وعسكرية.(فيرتا:Verta)

وقامت البرجوازية اليهودية الأوربية،وحتى الحركة الصهيونية فيما بعد، بتمهيد الطريق لبريطانيا لتامين مشروعها الاستعماري بمحاولات تلك البرجوازية إيجاد مخرج لتلك الجموع اليهودية المهاجرة إلى غرب أوربا وتأثيرها على اقتصاد بلدانها فانبرى العديد من رجالها إلى التخلص من تلك الجموع ونقلها إلى فلسطين ترغيبا أو قسرا، خاصة بعد فشل المستوطنات الأولى المادي والمعنوي في فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ فقامت باقتلاع العديد من العوائل اليهودية الفلاحية المتمرسة في روسيا وتهجيرها إلى فلسطين رغما عنها ودون رغبتها في الهجرة وإلى ترك وطنها الأم روسيا كما يكشف ذلك الكاتب اليهودي الروسي موشيه سميلانسكي: "كان أبناء مستوطنة عقرون بسطاء ولم يكن في رغبتهم وبإرادتهم الحرة المجيء إلى فلسطين (من روسيا) وإنما تبعا لرغبة السخي (روتشيلد) ووكلائه؛ لقد كانوا رجال عمل، أخذوا من وراء محراثهم وجلبوا إلى فلسطين ليكملوا عملهم هنا... عقرون كانت منذ بداية تأسيسها ثمرة كرم روتشيلد؛ فقد وافق هذا السخي على اقتراح أحباء صهيون وناشطيهم في روسيا إنشاء مستوطنة جديدة في فلسطين من فلاحين حقيقيين. وبوساطة هؤلاء الناشطين اختيرت إحدى عشرة عائلة وأرسلت إلى فلسطين.... لقد انتزعوا من أرضهم في روسيا وشغلوا في فلسطين ووعدوا أن يجعلوا فلاحين وليس عمالا باجر يومي".(Smilansky)

وتحاول المصادر الصهيونية، من ناحية أخرى، النظر إلى الرؤى النبوية في أسفار الأنبياء التي دونت في حقب متأخرة على أنها أحد العناصر الرئيسة لما يسمونه بالحركة القومية اليهودية التي تبلورت في الحركة الصهيونية. ويرى الكاتب اليهودي (Katz)، مثلا، إلى أن الأخيرة قد استمدت أيديولوجيتها بشكل كبير من الماشيحانية القديمة. ويدعي الشيء نفسه الكاتب اليهودي (Gewritz) في أن "المفهوم الماشيحاني يشكل القوة الخلاقة الفريدة في الحياة اليهودية"؛ فيما يطالب دافيد بن جوريون رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق بإفراد اهتمام خاص لها في الدراسات اليهودية بقوله: "إن الدراسات اليهودية يجب أن تفرد جانبا مركزيا للرؤى الماشيحانية التي كان لها الدور في جمع شتات اليهود" (.Ibid).

ومع ذلك فان المساحة التي احتلها معتقد الماشيحانية في الأدب اليهودي الرباني يبقى مرتبطا باشتداد كراهية الشعوب لليهود ولتعاليمهم العنصرية، وكان بعض اليهود يرى في بعض الأحداث العالمية رموزا لقرب ظهور هذه الشخصية. ومع ذلك لم يلعب هذا المبدأ دورا كبيرا في جذب الكثير من اليهود للهجرة والاستيطان في فلسطين، حتى بعد قيام دولة إسرائيل، لاسيما أن أبواب فلسطين منذ عام 1948 أصبحت مفتوحة أمام الهجرة والاستيطان، حيث نرى زعماء الكيان الصهيوني يتوسلون جهارا في دعوتهم ليهود العالم للهجرة إلى فلسطين واستيطانها. ومن ناحية أخرى، لا تؤمن معظم الطوائف الدينية لبني إسرائيل التي ظهرت على مر العصور بأسفار الأنبياء التي كتبت في أوقات متأخرة، وبذلك فان هذا المعتقد لا يحتل أهمية كبيرة في أدبهم وشرائعهم، أمثال الصدوقيين والسامريين والقرائين الذين يؤمنون بالأسفار الخمسة الأولى أو التوراة فقط، ناهيكم أن مثل هذا المعتقد لا يقتصر على اليهودية الربانية بل أن الأديان الأخرى تحمل فكرة الخلاص عبر عمل معجزي يقيم العدل والقسط كما هو الحال مع المسيحية وبعض الطوائف الإسلامية.

وعلى الرغم من كل المسوغات التي تدعي ارتباط اليهود بأرض الميعاد، فان نسبة الهجرة إليها كانت وما تزال كما يؤكد الكاتبان اليهوديان (Dinur) و (Ben-Zvi) تعتمد اعتمادا كبيرا على علاقة الشعوب الأوربية باليهود وبوضعها الاقتصادي، وخاصة في روسيا، حيث حصلت هجرة واسعة تحت تأثير أعمال العنف التي جرت بعد ثمانينات القرن التاسع عشر. وبتأثير الاضطرابات التي وقعت في روسيا خلال السنوات الأخيرة من ذلك القرن أيضا أدت إلى هجرة واسعة عرفت بالهجرة الأولى. وحصلت الهجرة الثانية بين 1905-1914 وضمت عشرة آلاف شاب عامل من روسيا أيضا بعد الاضطرابات التي جرت في عام 1905. وبدأت الهجرة الثالثة من 1919 إلى 1923 نتيجة لوعد بلفور في 1917 الذي أبدى عن تعاطف الحكومة البريطانية في قيام كيان يهودي في فلسطين. واستمرت الهجرة الرابعة من 1924 إلى 1931 بسبب الصعوبات الاقتصادية في بولندا وأوربا الشرقية.

كما ذكرنا سابقا، فان تزايد الهجرة كان يعتمد بشكل كبير على حالة اليهود في أوربا. ولم يكن للعرب او الفلسطينيين أي دور فيما حصل من أحداث، وليس كما يدعي البعض أنها فريضة دينية بل هي موضع خلاف بين الفقهاء اليهود ولا يضمنها اكبر الفقهاء اليهود، ميمونيديس، من بين الفرائض الواجبة التي استقرأها من التوراة. (القريشي) ولذلك فان الهجرة الخامسة التي بدأت من عام 1932 واستمرت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، مثلا، قد تميزت تبعا لذلك بهجرة واسعة من ألمانيا بعد صعود هتلر إلى السلطة عام 1933، ووصل عدد المهاجرين الى 3000؛ و 42000 في السنة التالية، و 61000 في عام 1935. وعند منتصف الثلاثينات، شكل اليهود في فلسطين 30 بالمائة من نسبة سكان فلسطين، وتبعها مهاجرون من مختلف أقطار أوربا نتيجة للتوسع النازي والقوانين التي صدرت بحق اليهود.

ومع ذلك لم تشهد فلسطين خلال العقود الاخيرة من القرن التاسع تصادمات بين اليهود المهاجرين الذين كانوا يشكلون افرادا، الا ان الحال تغير خلال السنوات الاخيرة من ذلك القرن عندما بدت الهجرة على شكل افواج منظمة أدرك الفلسطينيون والعرب عموما أنها تمثل حملة استيطانية تسعى الى الاستيلاء على فلسطين وتجريد ارضها من سكانها. ومنذ ذلك الحين بدأت المقوامة الفلسطينية تتخذ أشكالا متنوعة لهذا الغزو الاستطاني. (Hourani)

وخلاصة القول أن دوافع الاستيطان الصهيونية يمكن تصنيفها حسب دوافعها، داخلية تمثلت في بعض المعتقدات الدينية التي تراكمت عبر العصور وأسبغت هالة من القدسية على فلسطين، مثل دراسة التوراة والدفن والاعتقاد بإمكانية الشفاء من بعض الأمراض المستعصية، وظهور الماشيح وإقامة مملكة الرب تحت سليل داود إلا أنها لم تكن الدافع الحاسم في الهجرة الجماعية ولم تكن فريضة واجبة، وخارجية تمثلت في كراهية الشعوب الأخرى لليهود بسبب الأفكار العنصرية والشوفينية التي تضمنها تلمودهم، إضافة إلى رؤية الدول الاستعمارية فيهم أداة لتنفيذ مآربهم في الوطن العربي تحت غطاء التعاطف معهم ومع ما قاسوه في أوطانهم الأصلية في أوربا وحقهم في العيش في وطن خاص بهم على حساب تشريد شعب كان يمنح المستوطنين الأوائل، عند ما لم تكن أهدافهم الحقيقية واضحة، الحماية من الجنود الأتراك واللجوء إلى القرى العربية كما يؤكد ذلك موشيه سميلانسكي. ومن هنا تتحمل الدول الاوربية والبرجوزية اليهودية المسؤولية الاخلاقية في تشريد شعب من أرضه لأسباب خارجة عن ارادته.

المصادر والمراجع

Barzilay, l. E. “The Jew in the Literature of the Enlightenment”, Jewish Social Studies. Vol.18, 1956.

Ben-Zvi, I. “Eretz Yisrael under Ottoman Rule, 1517-1917”, in Finkelstein, L. Vol. 1, p.685.

Dinur, B. “The Historical Foundation of the Rebirth of Israel”, in Finkelstein, L. (ed.) The Jews, their History, Culture, and Religion. Vol. 1.

Gewritz, L. Jewish spirituality hope and Redemption. Hobken, 1986.

Hourani, A. Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939. Beirut, 1962.

Immigration and Settlement. Keter Publishing House Ltd. Jerusalem, 1973.

Katz, J. "The Jewish National Movement", Journal of World History, vol. 11, 1968.

Modder, M. F. The Jew in the Literature of England. New York, 1960.

Roth, C. A Birds Eye View of Jewish History. Cincinnati, 1935.

Seltzer, R. M. Jewish People, Jewish Thought. New York, 1980.

Shohet, A. German Jew and their Surrounding. Zion. Vol. 21.

Smilansky, M. A History of Jewish Settlement in Palestine. Jerusalem, 1905.

Trachtenberg, J. The Devil and the Jews. New York, 1943.

Verta, M. “Why a Brritish Consulate Based in Jerusalem”. Zion, vol.4, pt. 3.

Weinryb, B. D. “Enlightenment and German-Jewish Haskalah”, Studies on Voltaire and the Eighteen Century. Vol. 27, 1963.